الدراسات البينية وإشكالية المصطلح العابر للتخصّصات

الدكتورة آمنة بلّعلى

مخبر تحليل الخطاب - جامعة تيزي وزو- الجزائر

البريد الإلكتروني: saliha1927@gmail.com

الاستلام	٢٠١٧/٢/١٧	المراجعة	٢٠١٧/٣/٢٣	النشر	٢٠١٧/٤/٣٠

الملخص:

يسعى هذا المقال إلى الوقوف على طبيعة الدراسات البينية وإشكالية منظومتها المفاهيمية والاصطلاحية، ولقد رصدنا في البداية علاقة هذا النوع من الدراسات بالثورة اللسانية وبالبنيوية باعتبارها المحضن الذي انطلقت منه الدراسات العابرة للتخصصات. كما تطرقنا إلى علاقة الدراسات البينية باعتبارها دراسات ما بعد تخصصية بما بعد الحداثة، على الرغم من اختلاف المقاصد والغايات. ثم سعينا إلى الإشارة إلى أهم مجالات الدراسات البينية، كتحليل الخطاب والبلاغة العامة والدراسات المعرفية، نظرية المزج التصوري التي تشتغل على البنية التصوّرية للغة واعتبار المزج التصوري الآلية الذهنية التي تسمح بتفسير العمليات التصورية المنجزة أثناء ممارسة اللغة، وسعينا إلى التأكيد على وجاهة هذا النوع من الدراسات التي أعادتنا إلى الفكر المركب وابستيمولوجيا التعقيد، التي فرضت إشكالا اصطلاحيا وأعطينا وجهة نظرنا في هذه المسألة، منوهين في الأخير بدور الدراسات العابرة للتخصصات في ردم الهوة بيننا وبين تراثنا.

الكلمات المفاتيح:

الدراسات البينية، اللغة الواصفة، ما بعد الحداثة، تحليل الخطاب، ما بعد البنيوية، البلاغة العامة، نظرية المزج التصوري، المصطلح العابر للتخصصات.

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

Interdisciplinary studies and the problematic of cross-specialty terms

Prof. Amina Belaala

Professor at Speech Analysis Laboratory, University of Tizi-Ouzou, Algeria.

Email: saliha1927@gmail.com

Received 17/2/2017 Revised 23/3/2017 Published 30/4/2017

Abstract

The aim of this article is to treat the nature of inter-studies, their conceptual system and terminological problematic. We have primarily, observed the relation between this kinds of studies, the linguistic revolution and the structuralism, considered as the starting point of trans-disciplinarians studies. We deal also with the link between inter-studies as post specialties studies and the post modernism, despite the differences in objectives and intentions. We indicated the important domains of inter-studies, as discourse analysis, general rhetoric and cognitive studies and concept-mixing theory, which work with conceptual structure of language, and considering the concept-mixing as mental mechanism allowing explaining conceptual processing performed in language use.

We also indicated the pertinence of this kind of studies which returns us to the composing thought and the epistemology of complexity; which is imposing a terminological problematic, and we gave our point of view of this question and we noted finally of the role of the inter-disciplinarian studies in bridging the gap between us and our heritage.

keys Word: inter- studies, meta- language, post-structuralism, general rethoric, mixing-concept theory, metaphoric language, transdisciplinar terms

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

لا شك أن حاجة الدراسات المعاصرة إلى البينية، تعبّر عن رغبة الإنسان في تجاوز اليقينيات القاتلة والحقائق الجزئية التي تؤدي إلى تكلّس الفكر، وتأليه القناعات الشخصية، وهذه الرغبة هي التي تدفع الإنسان إلى إدراك الظواهر وتفسيرها باعتبارها ظواهر معقدة، لا يمكن النظر إليها دفعة واحدة، بل ينبغي عليه أن يغير موقعه في كل مرة تسفر له فيه عن وجه من وجوهها.

وعلى الرغم من أن الثقافة العربية قد تم اختزالها في الظاهرة الشعرية إلا أن دارسيها بنوا تأمّلاتهم على تيقّظ لامس مختلف أسئلة الظاهرة الشعرية، من عمليات إدراك واستدلال وتمثّلات نفسية واجتماعية وخلفية معرفية، حتى عدّ الشعر "صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات، منها ما تثقفه العين ومنها ما تثقفه الأذن، ومنها ما يثقفه اللسان، من ذلك اللؤلؤ والياقوت لا تعرفه بصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يبصره (...) إن كثرة المدارسة لتُعدي على العلم به، فكذلك الشعر يعلمه أهل العلم به"[1]

على الرغم مما يوحي به هذا القول من دعوة للاختصاص، إلا أن علماء الشعر أنفسهم تجاوزوا الثقافة العمودية التي تعاين الظاهرة في بعد واحد، وتنتج لغتها الخاصة وتقدم منهجها الخاص، ولا أدل على ذلك منظومة المفاهيم والاصطلاحات التي ارتبطت بالتاريخ وبالحساب والذهن والمجتمع والفلسفة والمنطق، فكانت الثقافة الشعرية نفسها، مجالا لتداخل المعارف التراثية قاطبة، ومثل ذلك ما تعكسه استعمال مصطلحات، مثل: **العيار والصناعة، والطبقة والسر والدلائل ومفتاح العلوم** وغيرها مما يحيل إلى مجالات مختلفة، جسدت الوعي البيني والثقافة الموسوعية لعلماء العربية. وهذا يعني، التّسليم، مبدئيا، بعدم معرفة مستقلة بذاتها استقلالا جوهريا عن بقية المعارف، وأن البينية ضرورة يفرضها منطق التفكير البشري ذاته وفي كل العصور، لكنها قد تصبح ظاهرة، تعبّر عن مرحلة بعينها وعن تحوّل معرفي شامل، مثلما هو الأمر في وقتنا الراهن، حين أثبتت العلوم المتخصصة السابقة، أنها عاجزة على الإجابة عن كل أسئلة الإنسان، وعاجزة عن تفسير الظواهر تفسيرا شاملا.

ومن هذا المنطلق، فقط، نعتبر أن الدراسات البينية ارتبطت في الفكر المعاصر بإشكال معرفي كبير من مراحل تطوّره المتسارع وهو الإشكال ما بعد التخصّصي لهذا الفكر الذي جسّدت الفلسفة فيه رافدا من روافد المعرفة، من اليونان إلى عهد ليس ببعيد، قبل أن تؤدي الثورة الصناعية إلى تراجع **الفكر الموسوعي** لحساب التخصصات التي ارتبطت بنشأة العلوم المختلفة، ومن بينها العلوم الإنسانية، كعلم النفس والاجتماع والأنثروبولوجيا واللسانيات. ولقد استطاعت هذه العلوم أن تنتج نظرياتها الخاصة ومنظوماتها المفاهيمية ومصطلحاتها الخاصة. فهل حقا كان التوجّه العلمي سببا في تراجع الفكر الموسوعي، وبروز السعي الأحادي الذي عكس نوعا من العقل التبسيطي القائم على منظومة الكيانات المغلقة مثل الماهية والخطية والوظيفة والبنية والنص والذات والموضوع ، وهل أن قيامها على **المنهجية العلمية** التي تتسم بالجزئية والاختزالية في وصف الوحدات الأولية التي تكوّن الظاهرة، قد أسس لمنظومة لعبت كما يقول **إدرغار موران** دور التحقيقي لحارس الحدود، من خلال التمركز حول الظاهرة؟[2]

إن هذه الصيغة المبسّطة للمعرفة بدعوى إزالة الغموض والتعقيد عن الظواهر وبدعوى التخصّص الدقيق، أنتجت في العلوم الإنسانية، خاصة، نوعا من التمركز حول نموذج منهجي معين وإخضاع الظواهر له، ولما انتقلت إلينا هذه المناهج تمركزنا حولها، وبات للمنهج الواحد أو لجزء منه أنصاره الذين يدافعون عنه أكثر من أصحابه الذين ابتدعوا نظريته؛ لذلك نجد أن من بين الآثار الوخيمة التي نتجت عن هذا التوجه دعوى التخصص داخل التخصص، والتموقع في الجهة المقابلة للشمس من الظاهرة، وإبقاء المناطق الحالكة مغلقة على الأفهام.

عبّرت هذه المنظومة، في الغرب، عن أزمة حقيقية سرعان ما شرع الداعون إليها في تجاوزها، واستبدالها بمنظومة أخرى قائمة على العقل الإنتاجي والقرائي المركبين "يتضمن مبدؤها الاعتراف بالروابط الموجودة بين المعارف والكيانات والظواهر المختلفة، وتفطنوا إلى مقولة **باسكال** التي تؤكد أن جميع الظواهر والأشياء ترتبط فيما بينها كلها عبر صلة طبيعية حتى الظواهر الأكثر تباعدا واختلافا"[3] وقد جسّد هذا الوعي حاجة معرفية ملحّة لفتح مختلف العلوم بعضها على بعض، للبحث عن أجوبة

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

لأسئلة لم تستطع مختلف التخصّصات الإجابة عنها، وانخرطت الفلسفة لتنفتح أسئلتها على نتائج علم اللغة والبلاغة، والتأويل، ودارت سجالات مباشرة وغير مباشرة انتهت إلى تفكيك السّرديات الكبرى وانحلال الأنساق الفلسفية، وجنوح العلماء والنقاد إلى إحداث توليفات ومسارات مختلفة لدراسة الظواهر، هي المسارات البينية التي تلتقي فيها التخصّصات والعلوم والمعارف المختلفة لتحليل الظواهر المعقدة والمركّبة وتجاوز التفكير المغلق.

كانت **التجربة مع اللغة** في كل حالاتها التواصلية، وباعتبارها مسكن الوجود هي الفضاء الذي انطلقت منه الدراسات البينية، لأنها لم تعد أداة توصيل فحسب، اخترعها الإنسان ليعطي معنى أو للتعبير عن فهمه الذاتي للأشياء، إنها تعبّر عن المعنوية القائمة بالفعل بين الأشياء"[4] ولذلك واستنادا إلى المبدأ البيني القار المرتبط بكل المعارف وفي كل العصور، يبدو طبيعيا أن نعدّ اللسانيات والدراسات البنيوية بمثابة الفضاء الذي انفجرت من خلاله فكرة الدراسات البينية، على الرغم ممّا يوحي به هذا الزعم من التبسيط والتعميم المخل.

1- اللّسانيات باعتبارها مدخلا للانفتاح على البينية:

ربما يبدو غريبا أن نجعل انطلاقتنا من اللسانيات، وقد كانت النموذج العلمي الذي سعى إلى التمركز حول اللغة في ذاتها، وأنتجت أنموذجا محايثا يعتقد أن آثار صيغته العلمية وصرامته المنهجية، وانغلاق مجال اشتغاله، كان من أسباب نشوء الدراسات البينية، والحقيقة أن المرونة التي ارتبطت باللسانيات، هي التي أنشأت تلك الاستبصارات البينية التي استثمر فيها اللّسانيون أنفسهم معارف أخرى وعلوما لم تكن لتجعل من اللغة موضوعا لها في دراسة الظواهر التي خلقت من أجلها لولا علم اللغة ذاته. إن المنطق الصارم الذي ارتبط باللسانيات في بداية نشأتها هو نفسه الذي سمح بامتداد هذا العلم، ليقتحم التاريخ وعلم الاجتماع والرياضيات والفلسفة، لا لشيء إلا لكون اللغة وهي موضوع هذا العلم ، "لا تنقل الظاهر والمستور بوصفه شيئا مقصودا في الكلمات والجمل فحسب، وإنما هي تحمل قبل كل شيء الموجود بوصفه موجودا إلى المنفتح"[5] والمتداخل.

رفعت اللسانيات لواء هذا التداخل عندما انفتحت على العلوم الأخرى للإعطاء تفسير مغاير لعلاقة اللغة بالمجتمع وبالنفس البشرية وغيرها. فظهرت اتجاهات لسانية مختلفة كاللسانيات الاجتماعية وعلم اللغة النفسي، والتقت بفلسفة اللغة والوضعية المنطقية التي كانت الوجه الآخر للبنيوية اللسانية وهي تجترح مقولة البنية الأساسية من الفلسفة، وتجعل منها مفهوما متعدّدا تتجاوز به الحيادية، وتقتحم مجال الرياضيات وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والتاريخ وغيرها، فبدت هذه المقولة كأنها جاءت لتحلّ إشكالا منهجيا سرعان ما فسح المجال لعديد المفاهيم بمبادلات سياقية، انتهت إلى ما يشبه الانفجار المعرفي، وكان لزاما أن تعاود المناهج البنيوية إدماج ذاتها ضمن ما يسمّى بالدراسات البينية، والاستقرار حول حقلها الأثير الذي هو اللغة.

لقد جسّدت البنيوية اهتماما خاصا باللغة، من خلال النظر في قضايا وإشكالات البنية، وهي إشكالات تختلف اختلافا بيّنا عن اهتمام علم اللغة على الرغم من أنه كان بعدا تكوينيا للبنيوية، حيث تخطّت حدود الآليات الوصفية التي اعتمدتها اللسانيات في أبعادها المختلفة الصوتية والصرفية والتركيبية، لتمنح الدارسين منظومة مفاهيمية ما لبثت أن تماهت فيه مع لغة علم النفس وفلسفة اللغة والهرمنيوطيقا، وكانت اللغة، كما أسلفنا، هي التي وجّهت مسار هذه الانزياحات حين تأكّد أنها موضوع فلسفي قبل أن تكون موضوعا للعلم. ولذلك سرعان ما انتبه اللّسانيون والبنيويون إلى تلك الوشائج المشتركة بين اللسانيات والفلسفة، كما انتبه الفلاسفة أنفسهم إلى الوشائج التي تجمعهم مع اللسانيين، فتمّ استيراد مفاهيم من مجالات أخرى كالمنطق والفيزياء والرياضيات، بل إن التأويل سيصبح رافدا من روافد الخروج إلى السياقات المختلفة، ولم تصمد الدراسات المحايثة في وجه تلك المبادلات، والانفجار المعرفي، وظهور الوسائط الجديدة. وتبلورت رؤى جديدة في فهم الظواهر المختلفة لتجاوز ثغرات المفاهيم المتعالية، بتقديم تفسيرات أقرب إلى الواقع، تنسجم مع الطبيعة المركّبة والمعقّدة للظواهر.

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

ومن بين نتائج هذا التداخل بين مختلف التخصّصات، تمّت العودة إلى نوع من المنظومة المركّبة أو الفكر المركّب الذي تتشكّل منه الظواهر، والذي كان بمثابة القاعدة التي انطلقت منها الدراسات البينية، فنتج تداخل أيضا على مستوى المنظومة المفاهيمية والاصطلاحية، وبدت فكرة **التداخل** وكأنها جاءت لكي تقدم حلولا لما اعتبر أنه مأزق وقعت فيه منظومة الفكر المبسّط.

ولعل ما في هذا الطرح المركب من إيجابية، أنه أصبح يُنظر إلى الظواهر المرتبطة بالإنسان، كاستعمال اللغة ومختلف الأنظمة الدلالية الأخرى، على أنها ظواهر مركّبة لا ينبغي أن تحلّل من زاوية واحدة ولا أن يستطيع علم معيّن تفسيرها، وهكذا وجدت اللسانيات نفسها، وبعدها البنيوية في تداخل مع علوم أخرى، وتظافرت كلها لتتجاوز الفكر الشمولي والتجزيئية في عملية تفسير الظواهر، فقال **بودريار**، "أنه ما من موضوع يوجد بمعزل عن مواضيع أخرى"[6] على الرغم من أن بعض المعارضين للبنيوية، يعتقدون أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد توليفة بين أفكار من مراحل مختلفة ف" أفكار الخمسينات والستينات والسبعينات، قد اجتمعت معا وبحرية، وعلى نحو مختلط ومشوش في الغالب"[7] لكن هذه الحرية هي التي أسفرت في نهاية الثمانينات وبداية التسعينات عن ظهور هذا المجال المعرفي من الدراسات البينية.

لا شك أن البنيوية من حيث هي ذاتها ثورة فكرية، كان لمنشئها وجوه متعددة تقع بين الفلسفة والعلم، وعلى الرغم من انشغالها بالظاهرة اللغوية، وأن مقولاتها الأساسية تمّ استثمارها في علوم مختلفة لدراسة الظواهر المختلفة، إلا أنها "ذهبت أبعد من ذلك، لأنها أرادت الكشف عن باطن الظواهر أو البنية التي تؤسّسها"[8] ولذلك عدّت في وقت ما سيّدة البحث الفلسفي الذي قرّب العلوم من الفلسفة، وقد كان لمفاهيم من قبيل **البنية والنسق والعلاقة والكلّية والتحوّل** دور في تأثيث العلاقات البينية التي كانت آثارها جليّة في تحليل ظواهر العلوم الإنسانية وخاصة اللغة والأدب.

تجلت بوادر الدخول في البينية من خلال الحوارات التي كانت بين البنيويين والفلاسفة، كما ساهمت في التخلّي عن الإيديولوجيات الشمولية، كالماركسية حتى قيل إنها قامت بإبادتها لتنصّب نفسها صنما بديلا، على الرغم من عدم إمكانية تحديدها باعتبارها مذهبا إيديولوجيا كالماركسية أو الوجودية، ولذلك قال **دولاكروا** : "ليس ثمة مذهب بنائي(...) بل إن هناك **لقاء ذهنيا** بصفة عامة، ومنهجا بصفة خاصة، بين **مفكرين متباينين يعيشون معا عصرا واحدا بعينه**، ألا وهو عصر انتهاء الإيديولوجيات، أو ربما انتهاء عصر النزعة الإنسانية، من حيث هي صورة من صور الإيديولوجيا، ولذلك، فما يجمع بين ليفي **شتراوس وفوكو وألتوسير**، وهم فرسان البنائية الأربعة، إنما هو ذلك المشروع العلمي الذي أرادوا تطبيقه على معرفتنا الإنسانية"[9].

نفهم من قول **دولاكروا** أن البينية تقوم على التباين في الفكر، وهذا التباين هو جوهر المشروع الذي ارتبط بهؤلاء المفكرين، فتكون البينية بذلك، ليس مجرد تجميع لمختلف، بل توليفة تتعاون وتتضافر من أجل تقديم توصيف علمي للظواهر أقرب إلى الصحة، ومن ثم، فالبينية ظاهرة معرفية؛ أي موضوعا ومنهجا في الوقت ذاته، ولذلك سوف نلفي ظهور مفاهيم جديدة، لعل أهمها مفهوم **الخطاب** الذي يمكن عدّه مفتاح الدراسات البينية، ذلك أن مجرد اعتبار كل المجالات المعرفية وقائع خطابية، فذاك يعني إمكانية دخول كل العلوم والمعارف لتفسير الخطاب، ما يعني أننا أمام إبستيمولوجيا جديدة تستهدف الغوص في أعماق الثقافات الماضية لتقديم وصف جديد للخطاب مثلما نجده لدى **ميشال فوكو**[10] نابع من اشتراك علوم أخرى لعلم اللغة وعلم الأجناس البشرية والاقتصاد السياسي والتحليل النفسي وغيره، في دراسة الممارسات الخطابية، وسوف يكون بالإمكان دخول الذات والمعرفة إلى الدراسات السابقة للغة والخطاب. وسوف يتحوّل العداء الظاهر للفلسفة إلى حنين إلى فلسفة الذات لدى **هوسيرل** وتسربها في علم اللغة، كما نجد أنثروبولوجية ليفي **شتراوس**، تصبح جزءا من السيميائيات العامة، لأن مفهومه للرموز لا يكاد يبتعد عن مفهوم **شارل سندرس بورس**، للعلامة المستمد من الظاهراتية، وهو الأمر ذاته الذي نجده في تضافر علم الاجتماع الماركسي وعلم النفس والجيولوجيا، كما أصبح مفهوم الكلية الذي كان جوهر تعريف البنيوية، متحدا "في النهاية بشبكة العلاقات الوظيفية المتبادلة التي تنشأ بين جميع الأنظمة"[11].

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار الأنثروبولوجيا البنيوية أحد الروافد المهمة للدراسات البينية، التي تبدو، في هذا المستوى، بمثابة حنين إلى الفكر الموسوعي السابق على عصر التخصّص، وانعتاق للمعرفة من صرامة الارتهان إلى تخصّص علمي دقيق، فقد تبيّن أن الدراسة التي تغلق بعض النوافذ، لا تمكّن من الوصول إلى معرفة واقعية بالظواهر، والنموذج الذي يحصر نفسه في تخصّص بعينه، يغفل التفاعل والحوار الذي يفرضه تعقّد الظواهر، وأن الفهم الحقيقي للخطاب يتحقّق بالإنصات إلى الوجود الذي يسكن لغته، ولذلك كان التقابل بين التاريخ والبنية عند **ليفي شتراوس** خطوة مهمة في مسار الدراسات البينية، كما بدت المظاهر المختلفة لدى **شتراوس** "كمجموعة من النظم الرمزية في المستوى الأول منه تقع اللغة وقوانين الزواج والعلاقات الاقتصادية والفن والدين والعلم، وكل هذه المظاهر تستهدف التعبير عن بعض مظاهر الواقع الاجتماعي والفيزيائي"[12] فالوظيفة الرمزية للغة، إذن، هي التي فرضت هذا النوع من البينية في الدراسة، وذلك تبعا لعلاقة مختلف المجالات، سالفة الذكر، بهذه الوظيفة، بل إن الوعي الجديد باللغة، وبمفهوم البنية ذاته، قد مكّن من إدراك التشابه بين الموسيقى والأسطورة، نظرا لتضمّنهما بنيات متشابهة، يمكن مد نطاقها إلى بقية الفنون كالرقص والشعر وغيرهما[13].

لا يعني هذا أن مفهوم البنية، كان مفهوما قابلا لشرح كل الظواهر وتفسيرها، في مختلف المجالات، بل، لكونه كانت له القابلية لكي يتشكّل مع كل الظواهر وفي كل مرة ، بطريقة مختلفة، فمفهوم البنية في الفلسفة يختلف عنه في علم الاجتماع، واللغة وعلم العلامات وعلم النفس والأنثروبولوجيا، وهكذا تتراكب هذه المفهومات بعضها فوق بعض لتشكّل طبقات من المفاهيم التي تتداخل فيما بينها. ونعيد، في كل مرة ، ومن خلالها التفكير في العالم وتعقّد ظواهره، بمختلف الوسائل التي تتوفّر لدينا بما تتيحه ظروف العصر الذي نعيشه، ذلك أن اللغة الطبيعية وحدها غير كافية لجعلنا قادرين على صياغة منظومة اصطلاحية لهذا العالم المعقّد، ولذلك نحن نحتاج في كل حين إلى وسائط أخرى من أجل فهم و تحليل ما يختبئ وراء ما لا يقال من الظواهر المعقدة لهذا العالم، الذي يكرر نفسه بإعادة تمظهره مرات غير محددة من خلال نفس القاعدة، وهو جوهر تشكّله.

هي عودة أخرى إلى اللاحيادية، وتعبير عن انهيار حلم العلمية، التي لم تكن الغاية منها، أيضا، علما حياديا مثلما يرى ذلك **ليونارد جاكسون**[14] ولذلك سرعان ما دبّ التحوّل في سعي البنيويين إلى العلمية، فتحوّل **بارث** إلى ما بعد بنيوي، وحاول **لاكان** الفرويدي إلى شد **فرويد** إلى عصر **هايدغر**، وأصبح **دريدا** ظاهراتيا، وتحولت ماركسية **ألتوسير** إلى بنيوية تاريخية، و **فوكو** إلى نيشوي وما بعد ماركسي[15] وأصبحنا نتحدث عن منعطفات بين مختلف التخصّصات والفلسفات والعلوم، وكان المنعطف اللغوي في الفلسفة والعلوم المختلفة، هو الطريق إلى الدراسات البينية التي سوف تتخذ فيها اللغة الواصفة حضورا مركبا يعبر عن تقاطع العلوم والمعارف في لحظة إشكالية من لحظات الفكر الغربي المعاصر؛ هي لحظة المراجعات والتراجعات التي أوقعت اللغة في شرك محظوراتها وألبستها لبوسات عدة، حتّم عليها أن تنصت لتلك التفاعلات، وترتفع عن رواسب اليقينيات والميتافيزيقا، والصرامة العلمية التي وضعتها فيها التخصّصات السابقة، فكانت الدراسات البينية بمثابة المنعرج الذي حملها على القفز خارج الزمان والمكان، ليتمّ استحضار تاريخ من المصطلحات وتطويعها لمفاهيم جديدة، عكسها التآلف بين مختلف الاختصاصات، وهكذا تم إخراج الظواهر والنصوص وتاريخ العلوم والفلسفة إلى منعرج إشكالي تغذّت منه ما بعد الحداثة وعبث به دعاتها، واستثمرت فتوحاته الدراسات البينية.

2- ما بعد الحداثة والدراسات البينية:

يمكننا عدّ الدراسات البينية ، دراسات ما بعد تخصّصية، ما يعني أنها تلتقي مع ما بعد الحداثة في صفة المابعدية، وإذا كانت ما بعد الحداثة تعبر عن وضعية فكرية قامت على التشكيك في طروحات الحداثة، وفتوحات التنوير، فهل يمكن إدراج الدراسات البينية ضمن هذا التوجّه، الذي أسال كثيرا من الحبر، وخلق جدالات بين الفلاسفة والمفكرين؟

لقد "وظف ما بعد الحداثة في الدوائر الفلسفية لتحديد المواقف النظرية الواضح تنوّعها، مثل تحديات **دريدا** لميتافيزيقا الحضور الغربية، وتحرّيات **فوكو** الخاصة بتورّطات الخطاب والمعرفة والسلطة، والفكر (الضعيف) القوي المقنع المتناقض

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

لفاتيمو، وتساؤل **ليوتار** حول صحة الميتاسرديات metanaratives العائدة إلى المشروعية والانعتاق. وهذه كلها تشترك بالمعنى الأوسع للكلمات، بنظرة إلى الخطاب اللغوي في حسبانه كموضوع إشكالي"[16].

إن المتأمل في المصطلحين، يدرك أن تصدّر السابقة (**ما بعد**) تشير إلى فترة تحقيبية للزمن الثقافي تركت وضعية **الآن** دون مساءلة، مثلما ذهب إلى ذلك **ليوتار** مفضلا السابقة re التي تعني إعادة كتابة الحداثة[17] في حين لا تفيد سابقة (بين) في كلمة inter- disciplinaire أي تحقيب، حيث يندمج الزمن الماضي في الحاضر والمستقبل، فالبينية تفيد إعادة إنتاج التخصّصات بالبحث عما يمكن أن يوحّدها رغم اختلافها، فهي تحمل في داخلها التخصصات، ولا تتجاوزها مثلما هو الحال في ما بعد الحداثة التي عبّرت عن أزمة وقعت فيها قيم الحداثة، فتمّ وضعها موضع تساؤل، انتهى إلى التشكيك في مصداقيتها، ورفضها بل إعادة كتابتها، ونبذ الوحدة والشّمولية التي ارتبطت بها، فهي حالة عرفتها "الثقافة بعد التحوّلات التي شهدتها قواعد ألعاب اللغة الخاصة بالعلم والأدب والفنون منذ نهاية القرن التاسع عشر"[18] ولذلك كانت مابعد الحداثة محاولة لتجاوز المبادئ والأسس والقيم التي قامت عليها الحداثة، بعدما تمّ الاعتقاد أن التقدم البشري يرتبط حتما بالتطوّر المتواصل للعلوم والتكنولوجيات، وفي هذا المعنى تكون مقولات كالعقل والتجريب والتطوّر، تعبيرا عن فكر يسير فيه المستقبل الإنساني في اتجاه واحد هو اتجاه التاريخ، وباختصار فالحداثة بحسب **غونتار**,Gontard تأسّست وفق نظام خطي ذي طابع جدلي سمح بالتفكير في الوحدة الشاملة، التي تعتبر العمل الأدبي بنية، والمجتمع نظاما وهوية الذات نفسها، منظورا إليها في تقابلها مع الآخر ومع الأنا[19].

وهذا يعني أن ما بعد الحداثة ولدت مع عودة الوعي في التعقيد واللانظام الذي يتصف بهما العالم المعاصر، وخاصة بدءا من سبعينات القرن الماضي، مع ظهور نظريات الكاوس، إنه فكر يضع أفكار الشبكة والتشظي ضد أفكار المركز والشمولية، وهي حالة تقوم على الواقع المنفصل المتشظي الذي تكون الزمنية الوحيدة فيه، هي الآن الحاضر، إنها المرحلة التي ساهم فيها الكل في رفض العقل. ومن ثمة ، فهي حالة خيبة أمل، ولامبالاة تجاه الحركات النظرية الإيديولوجية، والمثالية الكبرى التي قامت في القرن العشرين[20].

في هذا الجو من التنكّر لمنتجات العقل والعلوم، تبرز رغبة الدراسات البينية في التجاوز، لكن ليس لنفس الغايات، لأن الاهتمام سينصب حول البحث عن الآليات التي يمكنها أن تعطي تفسيرا واقعيا للظواهر، وتقريب المعارف والعلوم من أجل ذلك، لقد رفضت سياسة الاكتفاء بالمنهج الواحد والتخصّص الواحد ، وعملت على لم شمل الباحثين بإنشاء مراكز بحث وفرق تقدم مقاربات لإثراء البحث وتطويره حول قضية معيّنة أو ظاهرة لم تستوفها الدراسات السابقة، أو لم تستطع بعض الخيارات العلمية الإجابة عنها.

وهنا تختلف الدراسات ما بعد الحداثية عن الدراسات البينية، لقيام الثانية على البحث عن الحلول والإجابة على الأسئلة المعقدة التي ظلت عالقة وإعادة النظر في بعض الظواهر، مهما تباعدت التخصّصات، ظاهريا، في حين تقوم الأولى على الضد، والتنكّر والإنكار والسّعي وراء الحقائق المغيّبة وإعادة إنتاج المهمش، ونبذ الوحدة والسعي وراء الاختلاف والتفكيك وإنكار البدائل، فهي حركة عدمية، في حين أن الدراسات البينية حركة تبحث عن الحلول والبدائل، وتتجاوز الحالة التي يفكر فيها كل الناس في كل شيء مثلما رأى ذلك **إدغار موران**، توفيرا للطاقة والجهد من أجل التعاون الأفضل للاهتمام بقضايا يعتقد البعض أنها حكر عليهم، أو المساهمة في حلّ إشكالات عويصة معقّدة. إنها طريقة جديدة في إنتاج الفكر والمعرفة، وتأسيس علم جديد تكون مهمته حل المشاكل المعقدة التي تعبر التخصّصات.

أصبحت البينية، أيضا، المبدأ الذي تقوم عليه البحوث المعرفية التي نرى آثارها اليوم في تحول العلوم والمناهج المختلفة، فأصبحنا نتحدث عن سيميائيات معرفية وتداولية معرفية وشعرية معرفية وبلاغة معرفية أي أن كل المناهج والعلوم تتجه نحو البينية ضاربة عرض الحائط كل من التخصّصات المنغلقة ودحض فكرة اللاّتخصّص في الوقت ذاته، إنه فكر يجمع ولا يفرق، ويخترق الطبقات العميقة من الظواهر الإنسانية وأهمها اللغة، واستعمالاتها المختلفة في جميع الخطابات.

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

3- تحليل الخطاب ومدّ الجسور بين مختلف التخصّصات

إذا كانت البنيوية وتحولاتها قد هيّأت المجال للدراسات البينية، كما تراءى لنا، فإن هناك مجالا، نعتقد أنه نشأ من رحم اللّسانيات ذاتها، هو **تحليل الخطاب**، لكنه سرعان ما قام بسحب مفاهيم من معارف مختلفة تجمع بينها وشائج التّخاطب، وأعاد بها طرح سؤال استعمال اللغة في وضعيات مختلفة. وإذا كانت اللسانيات والبنيوية المحضن الذي تولدت منه الدراسات البينية، فإن تحليل الخطاب كان المجال الذي أرسى جسورا بين مختلف التخصّصات، فعدّ بحق المجال الأكثر تجسيدا للبينية، وخاصة في آخر توجّهاته المعرفية التي يطلّ منها على الحالات العقلية والتمثلات الذهنية وعلم الأعصاب والذكاء الاصطناعي وغيرها من العلوم الجديدة.

يذهب بعض المنظرين إلى التمييز بين لسانيات الخطاب وبين تحليل الخطاب انطلاقا من أن لسانيات الخطاب، هي تخصّص نظري يضم بعض التخصّصات التطبيقية المندرجة فيه، ومن بينها تحليل الخطاب ونظرية الحجاج، والتحليل التحاوري، والتحليل النقدي للخطاب، وغيرها من التخصّصات التي تباشر عملية التحليل استنادا إلى مرجعية نظرية، والتعبير عن هذه المرجعية بلسانيات الخطاب. هو تعبير عن مجموعة من المسلّمات النظرية والمنهجية التي تتجاوز فيها تخصّصات فرعية معيّنة، ويتعلّق الأمر بإدخال مفاهيم المقام والقصد والاستعمال والفعل والتّماسك والانسجام والاستدلال في الدراسة اللسانيةّ [21].

وهكذا استطاع تحليل الخطاب أن يكون ملتقى مجموع المعارف التي ساهمت اللسانيات في تقريبها لدراسة مختلف الظواهر المتعلّقة بالإنسان، من خلال استعماله للغة، فاستعيرت المفاهيم، وتداخلت المصطلحات ونشأت منظومة اصطلاحية عابرة للتخصّصات. أمام هذا التشظّي المعرفي، عاد التعقيد مرة أخرى لنعود إلى ما يشبه نفس النهج الذي كانت عليه من قبل، وأصبح الحديث عن المتّصل على حساب المنفصل، وستضمن هذه المنظومة **مبدأ حواريا** تجلّى في كل المستويات، وما يعنينا هنا هو تحليل الخطاب باعتباره الكيفية التي اعتقد أصحابها أنها تمكّن من الإحاطة بكيفية شاملة بالظواهر المختلفة، من استعمالات اللغة في مواقف اجتماعية مختلفة، في إطار وضعية تواصلية، تعقّدت فيها التّفاعلات والتّداخلات والارتدادات بين عدد كبير من الوحدات، والرموز، والمصطلحات، والمفاهيم، والمناهج، والنظريات، والرؤى، وتصارع فيها اليقين واللايقين، الواحد والمتعدّد، الجزء والكل، الثّابت والمتحول، المستقر والدينامي، الحتمي والصدفوي، المعروف والممكن. ولذلك رأى **إدغار موران** بأنه عصر الفكر المركب الذي لا يكمن فيه القول بأن جوهر العالم معقد، وليس بسيطا، وإنما القول بأن جوهر العالم، (وعلى غراره النص والخطاب) غير قابل للتمثل، وأنه قائم على إدانة ميتافيزيقا النظام، وميتافيزيقا رفض النظام أيضا[22] ومن هنا تتضافر تخصّصات عدّة لحل إشكالية هذا التعقيد.

سوف يمتد مجال تحليل الخطاب، ليأخذ من النظريات المختلفة المجاورة للسانيات، وهو ما يعبّر عن الوظيفة الجديدة التي سيضطلع بها الدارسون، فشمل نظرية التلفظ، ونظرية جاكوبسون التخاطبية وبعض الدراسات الخاصة بالمحادثات، وإثنوغرافيا التواصل، واللسانيات الاجتماعية والمقاربة التفاعلية بفرنسا وسويسرا وحوارية باختين وغيرها[23] فيصبح بحق تخصّصا في الدراسات البينية.

إن تحليل الخطاب باعتباره مجالا من الدراسات البينية، يضعنا اليوم في مفترق طرق خطر ومختلف عن الذي وضعتنا فيه الثورة اللسانية، وخاصة مع تكنولوجيات الإعلام والاتصال التي تجرّنا إلى عالم تتقاطع فيه، التقنية مع القيم مع علم النفس والأعصاب، وتفاعل الثقافات، وحتى الميتافيزيقا الافتراضية، وسيكون تعاملنا السليم مع خطاباتنا التي ننتجها في ظل هذا المفترق وسيلتنا لمعالجة مشكلاتنا وسلوكاتنا التي تتسبب فيها خطاباتنا، ويعد هذا الأمر مدخلا لمعرفة ذواتنا[24].

إن المنظومة المفاهيمية التي يحتويها المعجم الموسوعي لتحليل الخطاب والتداولية، تعبّر عن اقتياد الفكر الإنساني اليوم، إلى عالم معرفي معقّد، تستدل به معرفة عن أخرى، وينضوي كل علم في تضاعيف علم آخر، وفي ظل ذلك المجال الواسع الذي

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

توفّره التكنولوجيات الجديدة، والعلوم المعرفية، تطرح مصطلحات تحليل الخطاب إشكالية الظهور بمفاهيم مختلفة تلقي بظلالها على تخصّصات فلسفية وعلمية متعددة، وهي في اتساعها وتكاثرها كل يوم توحي بانفتاح أكثر على أكثر التخصصات دقة وغموضا كعلم الأعصاب والذكاء الاصطناعي وغيره.

4- البلاغة العامة ملتقى التخصّصات:

منذ أن أعيد اللقاء بين الفلسفة والبلاغة من خلال ما سمّي البلاغة الجديدة، تم التفطّن إلى البعد العلائقي الذي تقيمه اللغة مع الفلسفة والعلوم الأخرى بواسطة البلاغة، وقد تمّ فهمها على أساس أنها عقلانية لها آداءاتها المنتظمة داخل اللغة الطبيعية التي تمتلك منطقها الداخلي وسلوكها الحجاجي[25] وهو نفسه المنطق الذي دفع مجموعة من الباحثين هم **جماعة مو** إلى فهم البعد الاستعاري للغة، ومن ثم البعد البلاغي باعتباره بعدا أساسيا من أبعاد التفكير، وكل الظواهر. التقى هؤلاء الباحثين من اختصاصات مختلفة[26]؛ لأنهم أدركوا أن الصورة هي الشكل البلاغي الذي يوحّد بين مختلف الأنظمة الدلالية، ويخلّصها من الدراسات الجزئية والنماذج المغلقة التي لم تفها حقها من البحث، ولذلك التقوا لتأسيس علم بلاغي جديد هو ما أطلقوا عليه **البلاغة العامة**، وهي المبدأ الذي يلمّ جميع المعارف والفنون، وهو الأساس الذي تقوم عليه البينية، "وقد اعتمدوا في ذلك على أمثلة مستقاة من مختلف الفنون والثقافات ومراحل التاريخ، مما جعل عملهم الذي يمحو الحدود الكلاسيكية بين العلوم والفنون عملا منقطع النظير"[27].

تمكنوا واستنادا إلى هذا الوعي باستخلاص قواعد عامة تم تطبيقها على السرد والشعر والصورة المرئية مستفيدين من علوم دقيقة كعلم البصريات وعلم أعضاء وظائف الرؤية وعلم النفس الإدراكي، وتم من خلال ذلك نقل مجموعة من المفاهيم التي تمّ استثمارها في تحليل الصورة المرئية، في مختلف الأنظمة كالرسم والسينما والمسرح والنحت والنسيج وغيرها، سواء باقتراح مصطلحات جديدة أو تثوير مصطلحات قديمة وإعطائها معاني جديدة، أو إنشاء منظومة اصطلاحية تعود بجذورها إلى جذور اللغة اللاتنية واليونانية.

لقد أدرك أعضاء **جماعة مو** إشكالية وضع المصطلح ، وتحدثوا عن الصعوبات المرتبطة باللغة الواصفة، لأن ضروب الخطاب المختلفة، التي تتقاسم ظاهرة ما، لا تتفوق تحديدا بإجماعها، ليس لأن لبعضها استعمالا مجازيا لمصطلحات لها معان تقنية محددة في بعضها الآخر، بل الخلاف داخل الميدان الواحد، ولذلك نراهم في كتابهم عن الصورة المرئية يعتقدون بأن الطريق ستكون مليئة بالأفخاخ أمام أولئك الذين سيجازفون بالكلام عن الصور والأشكال والتشكيلات[28].

شغلت اللغة الواصفة، إذن، **جماعة مو** بالقدر الذي شغلهم فيه تحليل الصورة البلاغية، ولذلك قاموا بعمل مواز في الوقت الذي يتحدثون فيه عن التحليل يصوغون مصطلحاتهم ومفاهيمهم، وكانوا مدركين صعوبة ذلك الأمر، ولذلك ترجعنا لغتهم إلى "عدة سياقات في وقت واحد، وعباراتهم التحليلية، تنهض بعدة مسارات متوازية، وبالتالي تأتي مصطلحاتهم لتدل دلالة دقيقة على ما يكتشفه التحليل، ولذلك لجؤوا إلى توليد مصطلحاتهم المنسجمة مع دقة منهجهم وتعقيده، بالاعتماد على جذور يونانية لاتينية[29] أو القيام بمبادلات اصطلاحية ومفاهيمية لصياغة المفاهيم الجديدة التي تنسجم مع تخصّصهم البيني.

إن اللغة الواصفة هي قضية أساسية من قضايا الدراسات البينية، ولذلك لاحظنا تحرّيا في قضية وضع المصطلح، على الرغم من أن المصطلح ليس سوى لفظة أو عبارة تدل على مفهوم معرفي نظري أو عملي، وهذا يعني أن المصطلح مرحلة فكرية ثانية يصل إليها الفكر بعد تكوّن المفهوم، إلا أن الإشكال الذي ارتبط بالمصطلح العابر للتخصّصات هو إشكال في المفهوم الذي لا يمكن أن نضبطه من الناحية اللغوية، وما دامت اللغة تقوم على الاعتباطية، فسواء سمّينا، مثلا، الدراسة البينية بهذا الاسم أم بالدراسة العابرة للتخصّصات، فالأمر سيان، وهذا يعني أن الإشكال إن وجد ليس في المصطلح وإنما في المفهوم الذي هو معطى من معطيات النسق المعرفي، وهو لصيق به بل هو هو، فالمفهوم هو المعرفة وقد أخذت في التشكّل والبلورة في انتظار اللفظة التي تجسّدها. وعلى هذا، فإن النسق هو الرّحم المولّدة لجملة من المعطيات الشّكلية التي منها المصطلح، وبالتالي يصبح وضع المصطلح

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

كوضع اللغة تماما، لأن المصطلح مجرد لفظ، ودلالة الألفاظ على المعاني- كما أكد ذلك علماء الإسلام- **لا تطلب لذواتها**، بل هي تابعة لقصد معرفة المتكلّم وإرادته، وهي ما تلخّص لنا فكرة المفهوم، ومادامت المفاهيم العابرة للتخصّصات، تجسّد صفة العبور، فهذا يعني أن مصطلحاتها تحيا على أنقاض مصطلحات أخرى لمفاهيم تم استبدالها بأخرى وتجسّد حالة البينية تلك، ويزداد الأمر تعقيدا عند ترجمتها إلى لغة أخرى كالعربية.

لا شك أن الدراسات البينية لعبت دورا كبيرا في إثراء اللغات الأوربية، بتثوير المصطلحات والمفاهيم وابتكار منظومات اصطلاحية، كان لها الدور الكبير في الاشتغال الفعال ما بين التخصّصات. وليس غريبا أن ينتج هذا الزخم العلمي ارتباكا في تلقي هذه المنظومات الاصطلاحية في الغرب، فتتّسع إشكاليتها لدى العرب لحظة انتقالها إلى اللغة العربية، لتختزل في شروط وضع المقابل العربي والتغافل عن تداخل التخصصات التي أنتجتها.

إن هذا التلاقح الفكري، هو الذي هيأ للدراسات البينية اتساع أفقها، وهو ما رآه **ليونارد جاكسون** "بؤس البنيوية" وقد كان في حقيقة الأمر مبادلات بين الفلسفات والديانات الأفكار والتاريخ والعلوم المختلفة، وكأن الكل أصيب بما سمّاه بارت دوار التنقل vertige du déplacement وفي هذا الجو من التلاقح والتبادل، كان لا بد أن تخضع المصطلحات إلى وضعية التبادل والتنقل ذاته، حيث ألفينا هجرة مصطلحات من مجال إلى آخر ومن علم إلى آخر، ولعل أعنف نتائج هذا الارتحال ما نجده متجسّدا في الدراسات النقدية، حيث وظّفت مصطلحات العلوم كالرياضيات والفيزياء والكيمياء والفلسفة في تحليل النصوص، من قبيل العلاقة، والتشاكل، والتفاعل، والنظير والتمثل، والنفي والإثبات والسلب والإيجاب، والهرمسية والباستيش والاركيولوجيا والكولاج والتقويض والتشريح والجينيالوجيا وغيرها وأثيرت إشكالية المصطلح لاختفاء تلك الصرامة التي تضفى عادة على المصطلحات، نظرا لتلك الصفة البينية التي تحملها والتي تجعلها مفاهيمها صعبة، و"تتأتى صعوبتها من عموميتها الشديدة على وجه التحديد، مثل مصطلح الحضور الذي يغطي الحضور العياني والحضور في العقل والوعي الذاتي وأشياء أخرى"[30] ومن نموذجها التركيبي القائم على المزج بن جذرين أو مصطلحين ينتميان إلى تخصّصين علميين مختلفين، وغيرها من الصيغ الإبداعية التي تتكاثر يوما بعد يوم بتكاثر الدراسات البينية ونظرياتها ونماذجها التطبيقية المختلفة.

لا بد من التّسليم، إذن، بأنه لم يعد هناك مجال محدّد ولا منظومة مفاهيم مخصوصة بالدراسات البينية، فوجودها يسبق ماهيتها، وهي تصاغ خلال عملية الدراسة البينية، ولا توجد مصطلحات هي حكر عليها إلا في المستوى الضيق، وما دامت الدراسات البينية ذاتها تبلورت مع ما يسمى بالبعديات، فهي مجال ما بعد التخصّص، والمنظومة المفاهيمية له لا بد أن تقرأ في اتجاهاتها البينية، حيث يتم سحبها من مجال وإدخالها ضمن مجال آخر، ومن ثم يصبح المنتج لا هذا ولا ذاك، أو هما معا.

إن المجالات التي ذكرناها سابقا، وهي بعض مجالات الدراسات البينية، تشهد لغتها الواصفة من خلال منظومتها المفاهيمية والاصطلاحية حركة كبيرة سقطت فيها كل التسميات المنحازة للتخصّصات السابقة، وشهدنا نوعا من عدم الانحياز، وسقوط التعريفات والتصنيفات، وما الزخم المصطلحاتي المرتبط بسوابق من قبيل (**méta-hyper- para-- inter– post**) وغيرها من الصيغ التي تشدّد على الحالة الهجينية للدراسات المعاصرة التي تقوم تجريد التخصصات السابقة من شفافيتها المفهومية والاصطلاحية، إلا تعبير عن تحدي الفكر الغربي للتقليد، وهي حالة تدخل ضمن المشروع الكبير الذي ارتبط بالحضارة الغربية بتوليد منظومات معرفية متراكمة تثبت قدرته على التحكّم في الواقع، و تعبّر على أن العقل الإنساني قادر على البحث عن الحقيقة وقادر على التفاعل مع الطبيعة والعالم من حوله، وعلى الإبداع المتجدّد والسريع والذي يعكس صفة لصيقة بالعقل الإنساني هي ما عُبّر عنه في الدراسات المعرفية المعاصرة بالقدرة على **المزج التصوّري**، ذلك أن المعاني تتفاعل وتأخذ من المعاني الأصيلة، بعضا منها لتصنع الجديد، وتفاعل المعاني هذا، لا يعني أنه مجرد نسخ من المعاني الأصول"[31] إنها عمليات تقريب بين التخصصات من أجل دراسة الظاهرة بطريقة أقرب إلى حقيقتها أو من خلال إدراك المشترك بين الظواهر والمعارف المختلفة. وعليه، فما كان يعتبر في عصر التخصصات معارف متباعدة، نتيجة ما اعتقد أنها ظواهر متباعدة، لا يمكن لعالم في مجال أن

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

يفكر في ظاهرة أخرى هي محل اهتمام عالم آخر، لم تعبر سوى عن تنكر واضح لطبيعة القدرة الذهنية البشرية القائمة على التصور الشبكي للفضاءات الذهنية التي تشتغل بطريقة دينامية متفاعلة في كل حالات التفكير وأثناء استعمال اللغة. فتكون البينية على هذا الأساس دليلا على إمكانية التّعاون من أجل البحث عن الحقيقة من جهة، ونتيجة عمليات ذهنية قائمة أساسا المزج المفهومي عبر الشبكات[32].

إن هذا الزخم المفهومي والمنظومة الاصطلاحية الهجينة هو استمرار لاعتقاد الإنسان الغربي بضرورة التحكّم الكامل في الظواهر من خلال تداخل العلوم، وهي صيغة أخرى لمفهوم وحدة العلوم التي يرى دعاتها أنه يمكن التوصّل إلى نفس القوانين التي تنطبق على الظواهر المختلفة، بل على الكائنات الحية جميعها، وأن قوانين المادة تسري على كل الأشياء بما في ذلك الإنسان، ولذلك فالعقل البشري بإمكانية أن يربط بين الأشياء التي تبدو غير مترابطة[33]، كما أن اللغة ذاتها بإمكانها تجسيد هذه الحالة بالربط بين مفاهيم متباعدة، وهو ما تشتغل عليه البحوث المعرفية المعاصرة كما أسلفنا، وهي تكشف تمثّلات البشر الذهنية بواسطة المزج التصوّري الذي يلعب دورا مركزيا في بناء المعنى؛ لأنه من صميم اشتغال الفكر واللغة وتكوينهما، وعملية المزج بين علوم وتخصّصات مختلفة ليس سوى نتاج اشتغال عمليات المزج التّصوري لدى الإنسان والتي يقوم عليها التفكير وتتجلّى من خلال اللغة، ومن هنا تكمن قدرة البشر العجيبة على التّجديد المستمر.

ينبغي التأكيد على دور اللّسانيات التي أتاحت للباحثين هذه الطرق في استثمار قضايا لغوية وأنظمة دلالية غير لغوية لم تستطع هي كعلم مستقل أن تجيب عنها، الأمر الذي اعتبره أعضاء **جماعة مو** امبريالية لسانية كانت من الموانع الابستمولوجية المعرفية التي كبحت تطوّر نظريات بعض الظواهر كنظرية الصورة. فخلال هيمنتها، سمحت تلك الامبريالية، بحسب جماعة مو، بأن تولّد عند أولئك الذين كانوا واعيين بمخاطر تنقيل المصطلحات، رفضا غير مسوّغ هو الآخر للتعارض بين اللغة والتواصل المرئي[34] ولذلك جاءت الدراسات البينية ومن أهمها التداولية والبحوث المعرفية، لتتجاوز ما زعم أنه امبريالية لسانية، ليم الاشتغال على استعمال اللغة باعتبارها أفعالا اجتماعية، وتم اللقاء بين الفلسفة وعلم اللغة، وتطوّر بعد ذلك إلى فلسفة العقل، لنشهد ثورة في الدراسات اللغوية، تشابكت مع علوم أخرى كعلم نفس الإدراك، وعلم دراسة الإنسان والرياضيات، والعلوم العصبية، والذكاء الاصطناعي وظهر ما يسمى بالبحوث المعرفية التي تستقي منها أدواتها ومفاهيمها وتقتحم مناطق لم تكن مطروقة من قبل، ولعل أهم مباحث هذا التلاقي، هو الاشتغال على البنية التصوّرية للغة واعتبار المزج التصوري الآلية الذهنية التي تسمح بتفسير العمليات التصورية المنجزة أثناء ممارسة اللغة، من خلال الخطابات المختلفة، وهو ما يمنح للذهن صفة التحوّل، وينبغي فهم، تعقّد فضائه، وستكون الحاجة إلى شبكة من المجالات هو ما أطلق عليها **فوكونيي ومارك تورنز** شبكات الدمج التصوري conceptual integration networks ويعرّفان ظاهرة المزج التصوري التي تنشأ عن هذه الشبكة بكونها: "عملية معرفية كلية تقوم على القياس والتكرار والنمذجة الذهنية والمقولة التصورية والتأطير وتهدف إلى أغراض معرفية متنوعة تنشط أثناء التفكير"[35].

وهكذا حين يتم التوصّل إلى توصيف الدّراسات البينية على أساس ارتباطها بالنسق التصوّري للبشر، سيكون من الطبيعي أن نفهم، دور اللغة الاستعارية في كافة العلوم، كما نفهم إشكالية اللغة الواصفة للدراسات العابرة للتخصصات، "فالاستعارة هي المبدأ الحاضر أبدا في اللغة، وحتى في اللغة الجافة للعلوم الراسخة، لا يمكن أن نستغني عنها دون أن نعاني من بعض المصاعب، وفي الموضوعات ذات الطبيعة شبه الفنية، مثل علم الجمال والسياسة وعلم الاجتماع و الأخلاق، وعلم النفس ونظرية اللغة، وغيرها، فإن الصّعوبة الأساسية الدائمة التي نواجهها هي أن نعرف طريقة استعمالنا إياها، وكلما مضينا في التجريد أكثر، ازداد تفكيرنا اعتمادا على الاستعارة"[36].

وإذا كان الأثر الذي تحدثه تسمية مفهوم معين يكون بالضرورة استعاريا لطبيعة اللغة الاستعارية، فإن إشكالية المصطلح العابر للتخصّصات، تجعل فرضية إشكال المصطلح ذاتها موضع تساؤل، ينبغي إعادة النظر فيها من خلال التسليم بما يلي:

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

- ليس المصطلح بنية مغلقة ولا هوية معزولة، إنما هو معطى ملحق بسياق معرفي يفرض عليه هيمنته، والذي يشتغل في إطار الفضاء الذهني للإنسان القائم على عملية مزج تصوري.

-ليس المصطلح قضية لغوية تقنية بل هو قضية فكرية تخضع لموجهات منطق الذهن الذي ينتج الممارسة اللغوية، وهو يرتبط في حالة الدراسات البينية بالبنية المنبثقة الجديدة التي تنتج عن عملية تخصّصين أو أكثر، وأكثر من عملية مزج تصوري.

-لا يمكن معالجة المشكلات المصطلحية إلا بفهم الأطر التصوّرية التي ترتبط بالتخصّصات التي تتفاعل فيما بينها، والتي أنتجت منظومة اصطلاحية مكمّلة، ومن هنا نفهم ضرورة السوابق التي أشرنا إليها في إيجاد المصطلحات المرتبطة بالدراسات البينية، ودور الفضاءات التصورية الممزوجة، التي غالبا ما تخلق مفاهيم منبثقة خاصة.

- لقد تبين من خلال الدراسات المعرفية أن النسق التصوري للإنسان هو ذو طبيعة استعارية ومن ثمة فتفكيره يرتبط بجزء كبير وبشكل وثيق بالاستعارة[37] وهي في حالة المزج التصوري التي يقيم عليها الفضاء الذهني نوعا خاص من التعبيرات اللغوية التي تقوم على وجود علاقة بين مجالين متمايزين، شأنها شأن المصطلح العابر للتخصصات الذي يشتغل ضمن مجالين علميين أو أكثر، ومن هنا نفهم شيوع كثير من المصطلحات المركّبة، وانتباه الدارسين إلى علاقة الاستعارة بالمصطلح باعتبارهما مظهرين ديناميين للاشتغال المعرفي وتجليه اللغوي.

لعل فهما من هذا القبيل يساعدنا في تجاوز كثير من المعضلات المرتبطة بفهم المصطلح وترجمته إلى العربية، ومن هذه المعضلات:

النظرة المثالية للمصطلح: هناك اعتقاد بأن هناك صورة أو صيغة مثالية للمصطلح، وهي الصيغة التي يجب البحث عنها لحل المشكل، فالمصطلح جزئي ونسبي يخضع لحركة دائمة تغيّر داله ومدلوله، وهذه الحركية مشروطة بالأوضاع التاريخية والثقافية وحتى النفسية، فالمصطلح كينونة تاريخية، وليس هوية مطلقة، وتاريخيته هي التي تفرض نسبيته، ولو استعرضنا مصطلحا من المصطلحات لوجدناه قد مرّ بتطوّرات حتى استقر إلى حاله الآن (واستقراره الآن لا يعني توقفه عن التغير والحركة) وكان في كل فترة يلبي حاجات معرفية مرحلية، لذا نقول إن المصطلح ينمو مع النمو المعرفي لدى الإنسان في الواقع، وتعد صيغة مصطلح ما في مرحلته صيغة إيجابية، ما دام يلبي حاجات الفكر ويجيب عن أسئلته، فاحتمال التغير وارد، و إن أية صيغة هي مجرد احتمال وليست هي الصيغة المثالية، لذا فإن التوهم بإيجاد صيغة واحدة أمر غير منطقي وغير تاريخي أيضا، وقيمة أي مصطلح تكمن في قدرته على الاستجابة للحاجيات المعرفية للإنسان في فترة تاريخية ما. إن كل ما هو تاريخي لا يمكن الحكم عليه إلا في إطار النسبية، وهذه الفكرة يجب أن تغير نظرتنا للمشكلة المصطلحية كما يجب أن تغير تفكيرنا بشكل عام. يجب أن يدرس المصطلح بوصفه علما له مشكلاته النظرية والعملية، لا أن يدرس بوصفه مشكلة نسعى إلى إيجاد علم لها. والدليل على ذلك هذه المصطلحات العابرة للتخصصات، فبأي شكل نتحكّم في حركيتها؟

2- مشكلة الترجمة ذاتها :

في ضوء إشارتنا السابقة المتعلقة بكون المصطلح يولد مع النسق، فإن مشكلة المصطلحات البينية المترجمة تكمن في أننا نقوم بعملية توليد مقابلها خارج النسق، فنحن كأنما نعكس الآية فبدلا من الصيغة المنطقية التالية: نسق فمفهوم فمصطلح: أصل ففرع، نقوم في حالة الترجمة بصيغة مقلوبة: مصطلح فمفهوم فنسق: فرع فأصل، ومن هنا تتأتى الإشكالية في وضع المصطلح واستعماله، لأن الفرع لا ينتج أصلا. ولذلك فإن كل المعالجات التي تهمل هذا التفسير تظل عاجزة عن الحل وخاصة مع المصطلحات البينية التي تتجاوز النسق المعرفي الواحد، إلى شبكة من الأنساق.

3- مقولة المصطلح مفتاح المعرفة:

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

هذه العبارة صحيحة جزئيا، ولكنها ليست صحيحة بالمطلق، والعبارة الأكثر صحة هي المقلوبة عنها : المعرفة مفتاح المصطلح، لأننا سنظل على جهل دائم بالمصطلح ما لم نتمكن من معرفة الثقافة التي أنتجته؛ ولذلك لاحظنا أن **جماعة مو**، مثلا، تحيل على المعرفة التي أنتجت المصطلح قبل أن يتم سحبه على مفهوم آخر.

إن ما يتداول تحت عنوان مشكلة المصطلحات هو في جوهره مشكلة تعرف ومعرفة، بالمعرفة يتم تجاوز هذه الأسئلة التي تطرح على المصطلح، وكان الأجدر أن تطرح على من يستعمل هذا المصطلح والذي ينبغي أن يطور معارفه ويعمّقها لأنه يساهم في إنشاء معرفة، ذلك أن وضع المصطلح حتى وإن كان ترجمة، فهو "يقدم إضافة ثابتة على طريق استكشاف خبايا العلم وفحص الأسس المفهومية التي تقوم عليها قواعده"[38]

4- مشكل الوضع والنقل

إن المصطلح يمر بمرحلتين: الأولى مرحلة الوضع وهي المرحلة التي ينتج فيها المفكر أو الناقد أو الفيلسوف أو الكاتب مصطلحاته ليعبر عن مقاصده، وفي هذه الحالة لا يطرح أي مشكل؛ لأن واضع المصطلح يعرف جيدا علاقة مصطلحه بالمفهوم الذي يريد أن يعبر عنه، ومن أين استقاه، ويعرف كيف يستعمله ومتى وأين وفي أي سياق ولتحليل أية فكرة. وبالتالي فلا مجال للحديث عن مشكلة المصطلح في هذه المرحلة ولذلك لم يحدث أن قال أحد أن أصحاب النظريات الغربية أساؤوا وضع مصطلحاتهم.

أما المرحلة الثانية فهي مرحلة انتقال المصطلح من مصدره الأصلي ليتم تداوله لدى جماعات أخرى تستعمله في غير ما وضع له أصلا، أو تختزل استعماله فتشير به إلى جانب من جوانب الظاهرة أو توسّع استعماله، أو تضيّقه، أو تحرّفه، أو تستعمله استعمالا رمزيا بلاغيا، مثل مصطلحات النقد الأدبي خاصة، فكم من المستعملين لهذه المصطلحات يفهم بدقة دلالتها، ألسنا نرى أن كثيرا من النقاد يستعمل المصطلح من المصطلحات وكأنها مصطلح واحد وباعتباطية واضحة يتقعّر فيها ويوهم القارئ بالمعرفة، وهو يعبّر عن وعي قاصر بهوية المصطلح المعرفية، والاستعمال المستعجل له بالتركيز على المعنى اللغوي للمصطلح الأصلي أو على أهداف هذا المصطلح أو وظيفته.

يبدو أن بعض المترجمين العرب يعتبرون المصطلح هوية مفصولة بنيويا عن السياق المعرفي، وأن سعة اللغة العربية بمترادفاتها يحل إشكال الترجمة، والحقيقة أن الثورة المعرفية التي تشهدها الدراسات الغربية، والكم الهائل من المصطلحات الوافدة، وخاصة ما له علاقة بالدراسات البينية، سيضع اللغة العربية نفسها على المحك ما لم نهدم القطيعة مع تراثنا بمحاورته من أجل تثوير فهمنا له، واستعادة الذاكرة باكتشاف البعد البيني الذي كان ينتظم المعارف والعلوم العربية، وهو ما يمكننا من فهم الوحدة في هذه المعرفة التي بدت لنا عبر العصور أجزاء مفرقة.

لا شك أن البحث في علاقة اللغة بالدراسات البينية اليوم تتقاطعه مجموعة من المعارف والعلوم والنظريات، ولعل البلاغة وتحليل الخطاب يلتقيان مع الدراسات المعرفية في هذا التقاطع الذي له علاقة وطيدة بالبحث في نظريات الاتصال المعاصرة التي شكّلت وسائطها نمط حياة الناس كما شكّلت ثقافاتهم، وهي تنهل من علوم عديدة ، كعلوم الأعصاب، والعلوم الهندسية و المعلوميات والالكترونيات وغيرها ممّا تتّصل بالإنسان بطريقة مباشرة، وبطرق تفكيره وتمثّله للكون، بل إنّها تقابل مستويات في قدرات الإنسان على التواصل، وبأشكال مختلفة، وهذه المستويات تتعلّق" **أولا** بالدماغ، سواء من حيث فهم آيات الجهاز العصبي أو من خلال علاقة هذه الآليات بفهم اللغة، **وثانيا** بالحوار بين الإنسان والآلة، حيث ساهمت تطبيقات المعلوميات بفعل التقدّم الحاصل في شكلنة formalisation القدرات المعرفية، في ازدياد وتحويل قدرات التواصل الإنساني، **وثالثا** بالمجتمع؛ حيث عمل النجاح السريع الذي حقّقته التقنيات سواء في الشغل أو في أوقات الفراغ أو في تدبير المدينة على تغيير آليات التواصل والسلطة[39] ومن هنا تكون أية محاولة لفهم اللغة البشرية أو أي معرفة تتّخذها وسيلة كالأدب مثلا، تتطلّب فهم تلك العلاقة التي يتمّ بها

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

الانتقال من النموذج اللّغوي إلى أنظمة علامية أخرى أو مجالات كنماذج البرمجة، وأساليب التواصل بين الإنسان والآلة، ومن هنا كان التعاون بين مختلف التخصّصات التي أشرنا إليها[40]

إن المصطلحات العابرة للتخصّصات التي ستكون هي مفتاح المعرفة العابرة للتخصّصات، والتي تقوم على الحوار وتبادل المعارف، والتحاليل، والطرائق، ستسهم دون شك في إعادة فحص تراثنا، وان التوتّر الحدودي البين تخصّصي، سيجبرنا على تعدّي الحدود الفاصلة بين علوم اللغة العربية وعلوم الغرب، وستجنّبنا الاضطراب المحيق في التّعامل مع اللغة الواصفة للدراسات البينية، بل تدفعنا إلى اكتشاف موسوعية علمائنا، ونتخطى صرامة المناهج الغربية التي وضعنا فيها التقليد ردها من الزمن.

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

الهوامش:

[1] - ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تح محمود محمد شاكر، ج1 ص 5-7 .

[2] - يراجع إدغار موران، الفكر والمستقبل، مدخل إلى الفكر المركب، تر: احمد القصوار ومنير الحجوجي، دار توبقال ،ط1، المغرب 2004، ص5.

[3] -إدغار موران، الفكر والمستقبل، مدخل إلى الفكر المركب، ص6.

[4] - مارتن هايدغر، إنشاد المنادي، تر: بسام حجار، المركز الثقافي العربي / الدار البيضاء 1994، ص 12.

[5] - مجموعة باحثين، من الكينونة إلى الأثر، هايدغر في مناظرة عصره، ابن النديم للنشر والتوزيع، دار الروافد الثقافية الجزائر-بيروت، ط1، ص 27 .

[6] - جون ليشته، خمسون مفكرا من البنيوية إلى ما بعد الحداثة، تر: فاتن البستاني،مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت 2008 ص468

[7] - لينارد جاكسون، بؤس البنيوية، الأدب والنظرية البنيوية، تر: ثائر ديب، دار الفرقد، دمشق، 2008، ص 271.

[8] - عبد الوهاب جعفر، البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشال فوكو، ط1، دار المعارف، القاهرة، 1989 من مقدمة المؤلف، ص أ.

[9] - عبد الوهاب جعفر، البنيوية بين العلم والفلسفة، ص13.

[10] - يراجع، عبد الوهاب جعفر، البنيوية بين العلم والفلسفة، ص 47.

[11] - محمد مجدي الجزيري، البنيوية والعولمة في فكر ليفي شتراوس، ط3، دار عرفة للطباعة، القاهرة ، 1999 ص23.

[12] - محمد مجدي الجزيري ليفي شتراوس 32

[13] - محمد مجدي الجزيري يراجع شتراوس ص116.

[14] - يراجع لينارد جاكسون، بؤس البنيوية ، ص 164.

[15] - لينارد جاكسون، بؤس البنيوية 177.

[16] - ليندا هتشيون، سياسة ما بعد الحداثة، تر: حيدر حاج اسماعيل، مركز دراسات الوحدة العربية ، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت 2009، ص 102.

[17] - فرانسوا ليوتار،في معنى ما بعد الحداثة، نصوص في الفلسفة والفن، تر: السعيد لبيب، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت البيضاء، 2016، ص69.

[18] فرانسوا ليوتار، في معنى ما بعد الحداثة، ص 7 .

21-Gontard M, «le postmodernisme en France : définition, critères, périodisation» in Touret M., Dugast-Portes F. (dir.), Temps des Lettres,quelles périodisations pour l'histoire de la littérature française du XXème siècle, Rennes, PUR, 2001, p.287

[20]-Hakim MAHMOUDI -La poésie de Mohammed Dib : entre bris-collage et bricolage -- Eléments d'une esthétique postmoderne Thèse de doctorat en langue française- (Université Lyon II-p15

[21] - يراجع محمود طلحة، مبادئ تحليل الخطاب، في التراث البلاغي العربي، من خلال شروح التلخيص، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر2، 2015 /2016، ص24.

[22] - يراجع إدغار موران، الفكر والمستقبل، مدخل إلى الفكر المركب، تر: أحمد القصوار ومنير الحجوجي، دار توبقال ،ط1، المغرب 2004 ص7-8.

[23] - يراجع عرض مفصل لهذه المقاربات: عمر بلخير، الخطاب الصحافي المكتوب دراسة تداولية، دار الحكمة، ط2، الجزائر 2009 من ص 118 إلى 125.

[24] - يراجع مقالنا في مجلة فصول "تحليل الخطاب في الثقافة العربية المعاصرة، تثوير للمفهوم أم تسويق للمصطلح؟ عدد أكتوبر97 المجلد 1/25 خريف 2016. من ص38 الى 64.

[25] - عمارة ناصر الفلسفة والبلاغة، مقاربة حجاجية للخطاب الفلسفي، ط1 الدار العربية ناشرون/الاختلاف 2009.

[26] - نذكر منهم: Philippe Minguet , Semir Badir, Marcel Otte, Klinkenberg , Francis Edeline Jacques Dubois, Hadelin Trinon وغيرهم وهم من تخصصات مختلفة: بلاغة، سيميائيات، لسانيات، كيمياء رياضيات، نظريات التواصل، فقه اللغة، سوسيولوجيا، علم الجمال وغيرها.

[27] -- مجموعة مو، بحث في العلامة المرئية، من أجل بلاغة الصورة، تر: سمر محمد سعد، المنظمة العربية للترجمة،ط1، بيروت، 2012، ص9.

[28] - مجموعة مو، بحث في العلامة المرئية، ص20.

[29] - مجموعة مو بحث في العلامة المرئية ، ص11.

[30] - ليونارد جاكسون، بؤس البنيوية ص 246.

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548

[31] - مارك تورنز، مدخل إلى نظرية المزج التصوري، تر: الأزهر الزناد، جامعة منوبة، كلية الآداب والفنون، تونس 2011، ص 5.

[32] -مارك تورنز، مدخل إلى نظرية المزج التصوري، ص8.

[33] - يرجع محاضرة عبد الوهاب المسيري حول ما بعد الحداثة yotube

[34] - مجموعة مو، بحث في العلامة المرئية، ص15-16..

[35] - Gilles Fauconnier and Mark Turner - Conceptual integration network - cognitive sciences 2/22 , 1998, P133.

[36] -بول ريكور، الاستعارة الحية، تر: محمد الولي، القول لريتشاردز من مقدمة المترجم، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت 2016، ص16.

[37] -يراجع جورج لايكوف و مارك جونسون، الاستعارات التي نحيا بها، تر:عبد المجيد جحفة، ط1، دار توبقال للنشر، المغرب، 1996، ص21.

[38] - عبد السلام المسدي، المصطلحات المتصلة باللغة عند المتكلمين، أنموذج القاضي عبد الجبار، ندوة الدراسات المصطلحية والعلوم الإسلامية، ج2، جامعة سيدي محمد الرباط 1993.ص45.

[39]- جاكوبسون وآخرون، التواصل نظريات ومقاربات، تصدير عبد الكريم غلاب، ترجمة عز الدين الخطابي وزهور حوتي، منشورات عالم التربية، ط1 ، الرباط 9991 ، ص11

[40]- يراجع آمنة بلعلى، "مآلات الشعرية في ظل ثورة التكنولوجيات" ، ضمن كتاب آفاق الشعرية ، تحولات النظرية والإجراء، ط1، منشورات دار نيبور للطباعة والنشر والتوزيع، العراق 2016، ص118.

@ 2017 NSP
Natural Sciences Publishing Cor.
ISSN: 2536-9548